التاريخ والأدب

بقلم: د. عبدالباسط بدر

بين الأدب والتاريخ وشائج قربى ورحم، بدأت ببداية كل منهما، وتطورت بتطوره عبر الزمن، وما زالت وستبقى ما بقي تاريخ وأدب، وإن لبست لبوساً مختلفاً في كل عصر، وازدادت أو قلت مظاهرها الخارجية بين حين وآخر، فالعلاقة الحميمة قائمة في الأعماق، تمد جسورا بينهما، وتتداخل أمواج الأدب في شطآن التاريخ، ويمتد التاريخ جزراً وألسنة في محيط الأدب، ويأخذ هذا من ذاك ويمتاح بعضهم من بعض..

ففي الزمن البعيد عندما كان كل منهما في بدايته كانا متداخلين تماما، حيث يسكن التاريخ في صياغة شعرية، ويضع الشعر مادته الوحيدة من التاريخ الأسطوري، الذي تتعانق فيه الحقيقة مع الخيال، حتى تذوب الحدود بينهما، وكانت الملاحم الشعرية هي تاريخ الأمم الذي تعتز به وتتناقله جيلاً بعد جيل.

وعندما ارتقت ذهنية البشر وقررت حدوداً فاصلة بين الواقع والأسطورة ارتقت العلاقة بين الأدب والتاريخ دون أن تغيب، وصار الشعر واحداً من مصادر الدراسات التاريخية، يستشهد به على وجود الظواهر وتلمس الأحداث والأخبار، وصار التاريخ واحدا من موضوعات الأعمال الأدبية الكبيرة، بدءاً بالشعر المسرحي ووصولا إلى الروايات التاريخية الحديثة الولادة .

وما لبثت هذه العلاقة أن امتدت وصارت أكثر تطوراً مع ثبات الأدب في العصر الحديث وصار استحضار التاريخ في الأدب فنا من الفنون التي يحذقها الأدباء البارعون ويطبقونها بأساليب كثيرة تمتد من الحضور المباشر إلى الحضور في خطرات اللاوعي وطفرات العقل الباطن، وصار إسقاط التاريخ على الواقع، وإعادة تشكيل التاريخ برؤية الحاضر وفلسفته الموجهة أنواعاً من الإبداع الأدبي الذي يشيد به النقاد ويطرب له جمهور كبير.. حتى ظن بعض النقاد والدارسين أن الأمر سيعود كما كان، وأن الأدب والتاريخ سيتداخلان ثانية، ولو في بعض وجوههما.

وأياً كانت العلاقة المستقبلية بينهما، فإن العناصر التي يحتويها كل منهما تجعل هذه العلاقة مستمرة في شكل من الأشكال، فالأدب يعطي التاريخ سيرورة وانفعالا يُسكنه في أعماق المتلقي، والتاريخ يعطي الأدب مادة وموضوعاً يشد الناس إليه ويمتعهم ويؤثر فيهم أيما تأثير..

لذلك، ولأسباب كثيرة أخرى، كان التاريخ ركنا مساندا للأدب الإسلامي قديماً وحديثاً، بل إنه في العصر الحديث أكثر ظهوراً وأهمية، فالأدباء الإسلاميون هم أكثر من غيرهم التفاتاً إلى التاريخ، واستمداداً منه، يرجعون إلى عصوره الذهبية، ويعرضون أمجاد المسلمين فيه، ويستلهمون من أحداثه وعبره ما يشحنون به الشخصية الإسلامية بالقوة والصبر والعزم على الارتقاء. وقد صنع بعض الأدباء مطولات شعرية استمدوها من التاريخ الإسلامي، لا ليعلموا الناس تاريخهم وحسب، بل ليمنحوا الشخصية المسلمة ما تحتاج إليه من نماذج بطولية رائعة، ومشاعر تستعلي على صدمات الواقع عندما تقع، وعواطف إيمانية تعزز الفكر والعقيدة الإسلامية.